أم العواجز

سبحان الذى وسع ملكه الخلق كله ، ولا اعتراض على حكمه . فلا أبتغى هنا إلا أن أروى قصة إبراهيم أبو خليل وهو يهبط درجات الحياة : كورق الشجر فى الخريف ، قد ترفعها الرياح قليلا ، ولكنها — حتى فى ارتفاعها — تنطق بالهبوط المكتوب عليها رويداً رويداً إلى أن تتوسد الثرى وتدوسها الأقدام . شهدته وهو ينزل آخر درجات السلم ، وقد علمت فيما بعد أنه يتيم وتلطم فى صغره (ولا أدرى أهو حضرى ، أم ريفى ، واعتقادى أنه من أولاد البلد) . واستفتح شقاءه بالخدمة فى المنازل ، ثم إذا به بائع ترمس على عربة يد صفت عليها قلل قناوية ، زينت حلوقها بالورد والريحان . وقد سمعت أنه فتح بعد ذلك دكاناً صغيراً للعطارة ، ثم ارتد بائعاً متجولا كل بضاعته دبابيس و إبر مواقد الغاز ومشابك الغسيل يقفز بها من ترام إلى ترام . وفى حياته فترات متقطعة لم يصلنى خبرها ، وأغلب ظنى أنه ذاق لتشرده أحياناً لسعة الأسفلت فى قره ميدان .

وكان قبل أن أعرفه بقليل يحتل فى الميدان ركن الرصيف المثلث المواجه لدكان التركى بائع الحلاوة الطحينية ، يجلس وامامه « مشنة » فيها فجل وجرجير وكراث ، لا يزيد نداؤه عن قوله « الفجل وورور ، الجرجير العال » . لاينطق وجهه بأثر ما يدل على هذه العهود التى تقلب فيها ، وهذه المهن التى ظلت تركله واحدة بعد أخرى . فهؤلاء الناس يتقبلون الحياة كما هى ، لكل نهار قسمته ، وكل يوم ينقضى يموت — مثلهم — بلا تركة ، هم يدخلون الحلبة وقد مات إحساسهم : — أمن الجهل مات أم من البلادة أم من القناعة والرضا — فلا تطرف أعينهم للكلمات المنهالة عليهم . ولكن يجدر بك ألا تسارع إلى الحكم عليه فقد تكون ظالماً له ؛ فانك لو عرفته مثلى لوجدته رجلا سليم الطوية أنيساً مهذب اللفظ كريماً . ورغم ما يبذله من جهد ليتصيد لقمته ويقيم

أوده فان قلبه لا يعرف الحسد ولا الضغينة . تنبئك عيناه اللتان خيمت عليهما السحابات إن فى قلبه ميلا دفيناً إلى الفكاهة والدعابة ، وتأسرك نظرته لأن الابتسامة فيها تتملص من حجاب أثر حجاب ، فكأنك تشهد تصويراً سينمائيا بطيئاً لابتسامة العين كيف تكون . وكان إذا رفع وجهه إلىّ ظلل عينيه بكفه ، فيخيل إلىّ أن العالم قد تضاءل إلى هذا الإطار الذى انفردنا فيه نحن الاثنين ، وأن حديثه مسارة خافتة فى خلوة .

يحتل أبو خليل مكانه المعهود قبل الظهر بقليل ، فاذا جاء العصر ، حين تفرغ أو تكاد « مشنة » النهار ، قام وسار متثاقلا كعادته ، وأخذ يجول فى الميدان ويمر على كثيرين من أصحاب الدكاكين ، ويتريث عند هذا أو عند ذاك ، فيسألونه عن حاله ، ويسألهم عن حالهم ، وبعضهم يتندر معه ، ويضاحكه . وكان له صديق يشترى منه رغيفاً يحشوه بالطعمية ويدسه تحت إبطه ، وصديق آخر يشترى منه أرخص السجائر ويضعها فى علبة من الصفيح فوق حزامه بين جسده وثوبه ، ثم يترك أصدقاءه إلى رصيف المسجد ليتنسم الهواء — كما يقول — وليتعرف على الوارد فى ذلك اليوم . فاذا بلى جديد ما يراه عاد إلى مكانه وجلس وبسمل وأكل غذاءه ، حتى إذا فرغ منه قبل يده ظهراً وبطناً وحمد الله ، وهيأ لجسده جلسة مسترخية وأشعل سيجارة يدخنها بلذة كبيرة ، فهو صاحب مزاج . . . ثم يختفى عن الميدان ولا يعود إلا قبيل الغروب ومعه « مشنة » المساء . أما عشاؤه فرغيف وقطعة من الحلاوة الطحينية يشتريها من جاره البحرى ثم يذوب من الميدان حين يخلو من المارة . ولا أدرى أين ينام . ولكنى سمعت أنه يشارك امرأة عجوزاً مقعدة هتماء فى حصيرة فى حجرة صغيرة تحت حنية سلم فى آخر زقاق فى نهاية الدحديرة . هل تزوج ؟ هل له أولاد ؟ هل له أقارب ؟ لست أدرى . إننى أحب أبا خليل فلا أريد أن أتحدث هنا عما سمعته عن علاقته العجيبة (ولابراهيم قلب شفيق) بتلك العجوز المقعدة المصنة ، ولا أريد أيضاً أن أتحدث عن خيانته لها بين الحين والحين إذا ما فتح الله عليه ، فى تل قريب من السيدة ، فلا أعلم أن نفسى تعاف شيئاً كما تعاف التحدث عن هذا الحى وأهله .

وذات يوم مشرق صاف ، أقبل أبو خليل على مكانه المعهود من الرصيف

فوجد الركن الآخر قد احتلته امرأة حولها ثلاثة صبية ، وعلى صدرها رضيع كأنما يشرب من صدرها خمراً فهو مغمض العينين نشوان لا يفيق ، والطامة الكبرى أنها جلست أمام « مشنة » مملوءة بالفجل والجرجير والكراث . ولما بدأت تنادى « زرع العصارى يا فجل ، الحزمة بمليم » ارتفع لها صوت مجلجل فى الميدان . يا فتاح يا عليم ! وجلس أبو خليل لحظة وهو صامت يرقبها ، ثم تنهد وانصرف عنها ، وأخذ ينادى هو أيضاً على بضاعته ، وحاول أن يرفع صوته فوق صوتها فلم يستطع وأخذته نوبة من السعال . أراد أن يكلمها ويسألها من أين أتت ولماذا وقع اختيارها على هذا المكان بعينه ، ولكنها لم تأبه له ، ولم ترد عليه . تبيع بيد ، وتفرق صبيانها بيد ، وتنقل بثنى ركبتها طفلها المخمور من ثدى إلى ثدى ، ثم تتحرك كالمقعدة نحو قلتها فيتعرى فخذها قليلا . ولكن هيهات ! إن قلب أبى خليل ثائر لا يهش لها . لعلها إغارة مفاجئة ستنقشع غمتها فى الصباح . . .

ولكنه وجدها فى الصباح التالى أيضاً كالرصد أمامه ، وأخذ يتلفت إلى وجهها و إلى المارة و إلى جيرانه ، ويقوم ويقعد ، ويترك « مشنته » ويذهب يروى لأصدقائه هذا الخبر الداهم ، ثم يعود فاذا صوتها يجلجل فى الميدان كأنما تنادى على معشرها فى يوم الحشر العصيب .

واشترى أبو خليل فى تلك الأيام بدل العشر خمس سجائر

انتهت حيلته وانصرف همه إلى مراقبة هذه المرأة الجسور التى هجمت عليه تنافسه فى رزقه . والغريب أنه بدأ يعجب بها ، وحاول أن يبتسم لها مرة ، ومضت الأيام فاذا « مشنته » تقترب قليلا من « مشنة » بدر ، كأنما يريد أن يقول لها « لنشترك معاً » ولكنه لم يقلها . وأحست بدر أن المقام قد استقر بها و إن ابراهيم صفر اليدين من السلاح ، بل أدركت أنها أصبحت ذات سلطان عليه ، فتنزلت ذات يوم وردت عليه ، ثم لم يمض طويل وقت حتى كانت إذا قامت لبعض حاجتها فى الخرابة المجاورة أوصته أن يجعل باله إلى أولادها . وطال غياب أبى خليل عن مشنته ، وتسكعه عند أصدقائه ووقوفه على باب المسجد هب النسيم أو لم يهب ، فى قلبه أمل خفى . لعل بدر هى رزقه الذى أمطرته به السماء ذات يوم على غير ميعاد . وليس أحب إليه من أن يسلم قياده لهذه المرأة الجريئة ويعيش معها فى كنفها ، إنها امرأة — كالرجل — يحق

له أن يباهى بها الناس أجمعين . سيتودد إليها ، وسيضاحكها ليضحك معها ، وسينتظر حتى تقضم هى أولا من الرغيف لقمة أو لقمتين ثم تعطيه إياه فيأكل من حيث رفعت فمها ، هى التى ستوقظه فى الصباح ، وتغطيه بالليل ، وإذا تخابث وغاب عند أصدقائه من أصحاب الدكاكين بحثت عنه وجرته إلى حيث يجب أن يكون . هكذا كانت تحدثه نفسه . ولكن هل يفاتحها ؟ إنه لا يجسر على ذلك ؛ فهو لا يعلم عنها شيئاً ، وليس فى الميدان من يعرفها .

وفى تلك الأيام اشترى أبو خليل غداءه من الطعمية نسيئة .

ولما اقتربت مشنته من مشتها حتى تلاصقتا حدثته بدر ذات مساء — دون أن يسألها — عن حياتها ، فاذا بها أيضاً من المشاكل التى كتب على إبراهيم أن تكون نصيب روحه وعينيه فى هذه الدنيا . قالت له إنها حرة وغير طليقة ، متزوجة وتعيش كالأرمل ، فلها زوج غائب لا تدرى مكانه ، هو صعيدى يحمل على ظهره ربطة كبيرة من الفانلات والجوارب والفوط يدور بها على المقاهى ، يلازمها زمناً ثم يختفى فجأة ، وتسمع أنه سافر مرة إلى وجه بحرى ومرة إلى وجه قبلى ، ولا تدرى أهو يهرب منها أم من ثأر قديم يخشاه أم له هو ثأر يجرى وراءه ليسلم له شرفه . وقد مضى على اختفائه آخر مرة قرابة سنة ونصف سنة وهى لا تعلم أحى هو أم ميت ، والغالب أنه حى يرزق ، وإلا لجاءها نبأ وفاته لأن على ذراعه وشماً باسمه واسم بلده . أم تراهم سلخوا جلده ؟ أقاتل هو فى السجن أم مقتول لا يدرى أين قبره ؟ اختفى وترك لها أولادها ، فخرجت تسعى إلى رزقها ، وقادها حسن حظها إلى جوار رجل طيب مثل إبراهيم أبى خليل .

ومرت أيام أخرى فاذا الألفة بينهما تزيد ، وأخذت بدر تحنو على ابراهيم ، وتشترى له طعامه ولا تطالبه بثمنه ، لأنها خلطت مشنته بمشتها ، ونقوده بنقودها ، والكل فى جيبها . وظنت أن حياتها قد انتهت إلى تلك الصورة ورضيت نفسها ذات يوم (ولا تسل أعن اختيار كان أم عن اضطرار ، فليس من اليسير أن تجد بدل الغائب صعيدياً آخر . . .) وقالت لإبراهيم : « لقد اتسخ ثوبك فتعال معى الليلة أغسله لك » .

وكان إبراهيم جالساً أمامها وظهره إلى الطريق ، وأخذ يحدثها وهو لا يشعر بمرور الناس ولا الزمن . . . ترى هل ما يراه حقيقة أم من وهم عينيه ؟ خيل إليه أن شفتيها تختلجان فجأة ، ولمعت أسنانها وتألقت عيناها ، لا السواد وحده

بل البياض أيضاً ، وسمرت نظراتها إلى ما وراءه ، فالتفت فوجد صعيديا قد حنت ظهره ربطة كبيرة يسعى إليهما بخطى وئيدة . نظرة واحدة جعلته يدرك أن القادم رجل خشن لا يرحم ولا يستسيغ الدعابة . . . وحط الرجل حمله وجلس القرفصاء وكان كل ما قاله لبدر :

— كيف الحال ؟

فأجابته :

— الأشيا رضا والحمد لله على سلامتك .

وأطرق الفتى الصعيدى قليلا ، ثم أدار رأسه ووجه نظرة واحدة إلى أبى خليل فاطمأن قلبه والتفت إلى زوجه يقول :

— لكل شئ أوان ، لكن الصبر طيب .

وقام برهومة ينفض التراب من على مقعدته ، وغاب عن بصرهما وابتلعته زحمة الميدان ومرت أيام كثيرة لم أره فيها ، قيل إنه أصيب بالحمى ، وقيل بل هى العجوز القعدة قد علمت بخبر بدر فدست فى طعامه شيئاً انتظرت حتى بذلته لها شابة من جاراتها فلحقه منه أذى كبير .

عبت عن الميدان وأهله زمناً طويلا . ولما عدت إليه ومررت على الرصيف المواجه للتركى بائع الحلاوة الطحينية لم أجد بدرا أم العيال ولا إبراهيم ... ثم حدث ذات يوم أن بكرت فى الخروج لبعض أعمالى ودخلت الميدان قبل أن تفتح المتاجر ، وأخذت أسنانى تصطك من البرد إذ كنا فى شهر وصفه بين الشهور القبطية : قلب الشتاء طوبة ، الحفاة يدسون أصابعهم المتورمة تحت الابط ، ويسيرون كأنما تطأ أقدامهم العارية شوكا . . . ينبعث فى الميدان بين الحين والحين سعال أجش غليظ ، ثم يتلوه صمت ، ثم يسمع بوضوح — وهو همس — نتف من حديث بين أصوات لا يزال يثقلها النعاس وبلغم الصدر ، ورغم ما تقع عليه عين السائر من الغادين والرائحين فلا مفر له من الشعور بأنه فى مدينة مهجورة لا تعرف هؤلاء المارة ولا يعرفونها . وإذا بى فجأة أكاد أصطدم بابراهيم أبى خليل : ثيابه رثة ممزقة ، ورأسه عار ، وأقدامه حافية ، يسير كالمترنح نظرته المعتمة هى هى ، وابتسامته لم تتغير . خرج فى تلك الساعة المبكرة ليؤدى وظيفته التى يجب أن تبدأ وتنتهى قبل أن تنتشر

الحركة فى الميدان . أصبحت له مهنة جديدة : هى البخور . وهو عمل لا يتطلب إلا كفة ميزان قديمة ، وسلسلة غليظة ، وبعض نشارة الخشب وشيئاً من فتات اللبان والشيح يضعها وكسر الخبز فى مخلاة تعلق بالكتف وربما ألقيت فيها أيضاً اللاليم والعشرينات الخردة . أدركت لحظة رايته أن هذه هى المهنة التى ولد لها أبو خليل ، وكان يجب أن أتوقع أنه سينتهى إليها ؛ لأنها توافق طبعه ، فهى مهنة سهلة ينعم صاحبها بلذة التسكع ويتسلى بالتطواف على أشكال وأنواع من الناس . ثم إن دخلها ثابت — فهو من قبيل الاشتراكات ! — وليس لها سعر معلوم ، ولا تخضع لرقابة ولا تبور فيهـا بضاعة إذا كسدت . يعترف صاحبها أنه لا يرقى إلى مرتبة الباعة السريحة الذين يكسبون رزقهم بعرق جبينهم ، ولكنك لا تستطيع أن تتهمه بالشحاذة ، فها هو ذا أمامك خارج إلى عمله وعدة الشغل فى يده . وإذا كانت هذه المهنة هى هكذا عند عامة أصحابها إلا أنها شئ آخر فى نظر أبى خليل . فهو قد مل التجارة بأنواعها لأنها شد وجذب وخداع وحيطة ، ولكن البخور لا يرتكز إلا على العواطف وحدها ، وهو يؤمن أن تحيته التى يستفتح بها صاحب الدكان صباحه مجلبة للبركة لأنها صادرة من قلب صاف عطوف محب للخير . مسكين أبو خليل ! إنه لا يعرف الحياة ولا طبائع الناس . لازمته بعد ذلك أياماً كثيرة ، ورأيت بعينى الأسطى حسن الحلاق لا يرضى — فهو ليس بالأبله — أن يدفع إليه المليم إلا بعد أن يجره داخل الدكان ليبخر له المقعد والمرآة والطشت المقطوعة حافته بقدر رقبة الزبون . ورأيت صاحب المطعم الوطنى لا تقع يده إلا على طعمية واحدة بقيت من أمس أو أول من أمس . أما التركى فيعطيه المليم ويصرفه بحنق وضجر . ولما ألفه أكثر أصحاب المتاجر أصبحوا يعطونه المليم سواء تصاعد البخور أم لم يتصاعد ، فأهمل أبو خليل تجارته وأصبحت مجمرته منطفئة معظم الصباح ، أو إذ لاح فيها بصيص من النار لم ينبعث منها إلا دخان أسود كريه الرائحة تتأذى منه الأنوف . . .

وذات يوم مشرق صاف ، أحسست وأنا أسير إلى جانب إبراهيم أن الميدان قد سكن فجأة كما يسكن الجو قبل الأعاصير ، ثم أقبل من شارع مراسينا رجل له عينان براقتان كعينى الصقر ، ثوبه قد ضم سبعين رقعة ، وعلى رأسه عمامة خضراء ، له خطوة مجدة نشيطة لا تعرف الإعياء . قامته منتصبة ولسانه

لا ينقطع عن تلاوة الأدعية والأوراد ، وفى يده مجمرة ينبعث منها دخان أبيض جميل ذكى الرائحة ، بل إن سلسلتها صفراء لامعة . . . يا فتاح ياعليم ! صد أصحاب الدكاكين هذا القادم صدًّا عنيفاً أول يوم ، فهم زبائن أبى خليل وليس من المعقول أن يشتروا فى الصباح الواحد بركتين قد تفسد إحداهما الأخرى . . . ولكنه عاد فى اليوم الثانى والثالث والرابع ، ثم تناول أول مليم . . . ثم عاد ومر على كل دكان من جديد سواء رق له قلب صاحبه أم لم يرق . . . وقد سحرنى دأب هذا الرجل وقوة إرادته ، فتركت صديقى الأعمش وسرت وراء هذا القادم العجيب ، فاذا به يجرجرنى من السيدة زينب ، إلى ميدان باب الخلق ، إلى القلعة إلى السيدة عائشة ، ويشق القرافة إلى السيدة نفيسة ثم إلى السيوفية والخيمية وبوابة المتولى ، ثم إذا به يأوى إلى مقهى صغير فى سيدنا الحسين ، ويخلع عمامته الخضراء ، ويجلس ليدخن الجوزة ، وجلست إلى جواره وأنا ألهث وأتصبب عرقاً . . . رأيته يسير ساعة من أجل الوصول إلى زبون واحد . . . ولم ألق فى حياتى من يسعى إلى رزقه بهمة هذا الرجل وصبره وجلده .

وترك برهومة مجمرته وأصبح يكتفى بالمرور وحده على أصحاب المتاجر علهم يذكرونه ويعطونه المعلوم . وتضاءل دخله ، واضطر إلى الوقوف وسط الميدان تارة ، وعلى باب الست تارة أخرى ، فاذا ببعض الزائرين يدسون فى يده ماتجود به نفوسهم ، إذ حسبوه شحاذاً يتعفف عن السؤال . والعجيب أن أبا خليل رق له بعد قليل طائفة من الزبائن تخلص له ، وتبحث عنه ، حتى تعطيه مافيه القسمة . مسكين أبو خليل ! إنه لا يعرف الحياة ولاطبائع الناس . . .

وذات يوم مشرق صاف و برهومة فى مكانه المعهود إذ دوت بالقرب منه صرخة عالية طافت بالميدان كله « حىّ ! قيوم ! » وتجمع الناس حول المجذوب الذى صرعه الوجد ، ووقفت فوق رأسه إحدى لابسات الملس الأسود والمداس الأصفر وعقد الكهرمان الغليظ واندفعت تزغرد . . . واستفاق المصروع ولكن فمه مطبق لا ينبس ببنت شفة ، وعيناه المصابتان بالحول تحملقان فى وجوه المجتمعين حوله وقد اغرورقت فيهما الدموع . ثم رفع كفين ملأتهما خواتم زرق وخضر وحمر ومسح وجهه وتهيأ لجمع النقود . . .

ولما سمع أبو خليل فى الموعد عينه تلك الصرخة ذاتها فى اليوم الثانى والثالث ترك مكانه والتفت إلى المسجد وهو يتمتم :

« يا أم العواجز ! مدد ! »

كان قد مل الحياة ، وركبه الاعياء والضعف ، وزادت سحابات عينيه ، والمحنى ظهره . . . واتجه بخطوات متثاقلة إلى مقام أم العواجز ، حوله صفوف من الشحاذين قد جلسوا القرفصاء — حتى تخالهم هكذا خلقوا — وأسندوا ظهورهم إلى جداره ، يحيطون به إحاطة القمل بقبة الفقير . هيهات أن يجد له مكاناً بالدرجة الأولى بجوار الباب ، فتركه ودار حول المسجد حتى وصل إلى الميضأة وجلس على بابها . فالتفت إليه من يسبقه فى الأقدمية ووجه إليه نظرة نكراء : مفيش يكره الشحاذ إلا الشحاذ مثله . . .

وهناك تركت أبا خليل ونفضت منه يدى ، فقد أصبح من أهل دنيا غير دنيانا . فى دنيا لا مخرج لها ، بل لها باب واحد للدخول قد كتب فوقه : « باب الوداع » .

يحيى مقى